أ.د.فتحي بوخالفة جامعة محمد بوضياف -المسيلة -الجزائر

النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر.رؤية في التطور والتغيير

ملخص

يعالج البحث موضوع النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر، من خلال ثنائية التطور والتغيير. حيث يقتضي تفسير الظاهرة الأدبية هنا النظر في جملة العوامل التاريخية والاجتماعية، التي أوجدت نهضة أدبية وفكرية في الجزائر، ثم العوامل الأخرى التي ساهمت مباشرة في تطورها. وقد اقتضت طبيعة المعالجة تحديد أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كبدايات أولى لتلك النهضة.

ومن الناحية المنهجية تطلبت المعالجة الوقوف على نقطتين هامتين هما: حتمية التطور التاريخي والأهداف المنجزة\الشعر الجزائري الحديث.. بداية التحول النموذجي. من خلال هاتين النقطتين الرئيستين سعى البحث لمقاربة حيثيات النهضة الفكرية والأدبية في الجزائر من منظور جدلي تحولي.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائري الحديث، النهضة الفكرية، التطورات التاريخية، الفوارق الطبقية، الكوسموبوليتية...

Résumé

Le présent sujet de recherche traite la renaissance intellectuelle littéraire en Algérie par la dyade de l'évolution et du changement, où l'interprétation du phénomène littéraire nécessite la reconsidération des facteurs historiques et sociaux. Ces derniers, ayant engendré une renaissance littéraire et intellectuelle en Algérie, avaient contribué directement au processus de développement. Ainsi, cela avait été nécessaire pour la nature du traitement de se focaliser sur la fin du 19 siècle, étant une ère reconnue comme prélude de cette renaissance.

Méthodologiquement parlant, on s'est appuyé dans la présente étude sur deux points importants : L'inévitabilité du développement historique des objectifs achevés (la poésie algérienne moderne) et le début d'une transformation modèle. Selon ces deux articulations cruciales, on a tenté dans la présente recherched'aborder les raisons de

la renaissance intellectuelle et littéraire en Algérie en approchant une perspective à la fois controversée et transformationnelle.

Mots-clés : – *La littérature algérienne moderne – La renaissance intellectuelle – Les développements historiques – Différences de classes – Cosmopolitique…*

من الواضح جدا أن الظروف التاريخية التي عاشتها الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي، أسهمت في صنع واقع اجتماعي على درجة من الانحطاط والتقهقر نتيجة عوامل الصراع التي طبعت خصوصية الحياة القائمة آنذاك. ومن الممكن جدا أن يكون الفرد قد فكر في صنع ملحمة تاريخية يحقق بها حريته من جانب، وتخلد ذكراه من جانب آخر، ونماذج الثورات الشعبية التي سادت القرن التاسع عشر دليل على ذلك.

وفي تحديد طبيعة الطور التاريخي يستدعي الدهن العوامل الموضوعية التي لا تخرج عن أطر الواقع القائم للفرد، بحيث لا يمكن للإنسان الجزائري التفكير على نمط موضوعي إلا وفق ما تقتضيه طبيعة الظروف والمتغيرات التي يعيشها، ومع ذلك يستدعي الموقف وجود نخبة طلائعية تحمل على عاتقها إيجاد تصورات مقنعة إزاء العالم.

وتثبت الوقائع التاريخية أن الانتكاسة السياسية والثقافية والفكرية والأدبية، التي عرفتها الجزائر منذ بدايات الاحتلال الفرنسي، كانت فترة انكماش ثقافي أشبه ما يكون بالغيبوبة، شعر الإنسان الجزائري خلال تلك الفترة باغتراب حقيقي عن واقعه وصل إلى حد النكران. ويرتبط الأمر بالدرجة الأولى بعوامل الانكسار المادي الذي جر انكسارات معنوية أخرى، وهذا ما كانت تعيشه النخبة الطلائعية من المثقفين الجزائريين، الذين كانوا على درجة من الحساسية إزاء الوضع، نتيجة الوعي، ونوعية التفكير. وقد امتدت حالة الانكسار في الجزائر« حتى أواخر القرن التاسع عشر حين بدأ يسري في المجتمع انتعاش واعد باستئناف النهوض بعد الانكسار، بفعل عوامل مختلفة داخلية وخارجية.فمن العوامل الخارجية إدراك الجزائريين الذين كانوا يترددون على أوروبا وفرنسا خصوصا للفروق الظالمة

بين سياسة فرنسا في وطنها، وسياستها في الجزائر. كما لعبت الصلة بالشرق العربي دورا بارزا بفضل الصحف، والنشريات التي كانت تسرب إلى التراب الوطني، فتدعوا إلى اليقظة والنهوض عربيا»(1).

يمكن اعتبار أواخر القرن التاسع عشر في الجزائر، بداية لتحول عميق على مستوى المنظومة الفكرية والثقافية الجزائرية الحديثة، نتيجة للتحولات التاريخية الجديدة التي صار يعرفها العالم الحديث. وبالنظر إلى صراع القوى الاجتماعية فيما بينها يبدو التطور الجدلي للواقع مستجيبا لحتمية تاريخية صنعت جملة من التناقضات. وبالنظر إلى رأي المؤرخين، تؤدي العوامل الداخلية والخارجية دورها الأساسي في النهضة الفكرة والأدبية في الجزائر، من خلال ما تسهم به من تفاعلات في إنتاج ظاهرة اجتماعية جديدة. وعامل الاحتكاك بالآخر هو في عمومه عامل للانفتاح ومحاولات جادة للاكتشاف والفهم في الآن ذاته، إلا أنه لا يمكن أن يصنع بمفرده التحولات التاريخية المطلوبة.كما أن عامل الثقافة والرغبة في تكوين رؤية فكرية لا يمكن أن تتأتى من معطيات نظرية أو تصورات ذهنية صرفة بعيدة عن خصوصيات الواقع المعاش. لذلكيبدو التفسير المنطقي للتحولات التاريخية القائمة آنذاك، هو عامل الوعي الذهني المستند لرؤية واقعية ناتجة عن التطورات المادية الجديدة لنسق الحياة الاجتماعية.

ويمكن فهم شئ من مظاهر التحول الاجتماعي والتاريخي في الجزائر خلال تلك الحقبة، وفق ما تمثله طبيعة بداية التحول الثقافي وفق ما تقتضيه التحولات الموضوعية للبنية الاجتماعية. فصحيفة "المؤيد" المصرية مثلا كان لها دورا طلائعيا في انفتاح العقلية الجزائرية الحديثة، وجعلها عقلية منتجة، والتي يقول عنها" سعد الدين محمد بن أبي شنب":«إنها ابتداء من سنة 1889م،أخذت تدعو إلى اليقظة وإصلاح المفاسد المتفشية بين العرب، وحب الحرية والثورة على الاستبداد الاستعماري، فكانت الصحف والمجلات تأتيهم(الجزائريون) مباشرة من مصر، أو تصل إليهم عن طريق غير مباشر أي طريق تونس، حيث كانت الرقابة الفرنسية أخف وطأة وأقل تشديدا من طريق المغرب، الذي كان لا يزال يتمتع باستقلاله. أو ما بين حقائب الحجاج عند رجوعهم من البلاد المقدسة بعد أداء مناسك الحج أو العمرة، وكان

كل عدد من تلك النشرات يزيدهم شجاعة وإيمانا بمستقبلهم العربي والإسلامي. فمن آثار تلك الروابط الروحية والعقلية بين الشرق والجزائر في ذلك الزمان؛ أن أحدثت منذ مطلع القرن الرابع عشر حركة علمية وأدبية، تنتمي إلى النهضة الشرقية من ناحية وتقتدي بها، ومن ناحية أخرى تقلد أساليب الغرب العلمية في البحث»(2). يقدم رأي سعد الدين بن أبي شنب عوامل نهضة فكرية وأدبية متكاملة، تقوم على معرفة ما هو موجود لدى الآخر، سواء في المشرق العربي أو الغرب الأوروبي، ويكمن العامل الأساسي في القراءة والاطلاع على ما قدمه المشرق العربي، من خلال ما تكتبه الصحف، كصحيفة المؤيد مثلا. من هذا الباب تؤدي وسائل الإعلام دورا تاريخيا بارزا في توعية الجزائريين بحقيقة وضعهم الاجتماعي والسياسي على حد سواء، إلى جانب السفر إلى الغرب والاطلاع على طبيعة السياسة الاستعمارية في بلادها،وما تقدمه لأبنائها من عدل ومساواة وحرية، نقيض ما تبديه في مستعمراتها، إلى جانب الصلة بالمشرق العربي الذي كان يتمتع بحركة ثقافية وعلمية عكس ما كان سائدا في الجزائر، الذي خيم عليها الركود الفكري والأدبي.

من الممكن الفهم أن هذه العوامل الخارجية أسباب فعلية في نهضة فكرية وثقافية في الجزائر، والواقع يثبت ذلك. لكن من منظور موضوعي أن الوعي الفكري لا تصنعه عوامل لا تحتكم لحتميات التطور التاريخي الهادف إلى الثورة والتغيير.

أ -حتمية التطور التاريخي والأهداف المنجزة

إن حتمية التطور التاريخي تصنع ظروفها من منطلق التحولات الاجتماعية والاقتصادية القائمة داخليا، ولا يعني هذا أن التحولات الاقتصادية العالمية غير مؤثرة. فمن غير المعقول أن يبقى المجتمع الجزائري بمنأى عن التحولات الجديدة الآخذة في نمو وتطور فعلي، لذلك فالنمط الاقتصادي القائم خلال الحقبة الاستعمارية يعطي نوعية التطور الثقافي والأدبي في الجزائر، وهو التطور الذي تمليه طبيعة الشرط التاريخي الجديد.

تثبت مقولة سعد الدين بن أبي شنب، أن المعطى الثقافي يمكن أن يكون عامل وعي وتغيير في آن واحد، بحكم أن الفكر البشري هو موجه الحياة الإنسانية

بشكل عام. هذا أمر طبيعي جدا، لكن على الفكر كي يضمن فاعليته في التغيير لا بد أن يحتكم لعوامل واقعية قائمة تضمن استمراريته، وتثمن فاعليته، وهي العوامل التي ينبغي أن تكون من الواقع نفسه الذي يعيشه.

والسؤال المطروح: هل النشاطات الفكرية والثقافية والأدبية، التي بدأت تعرفها الجزائر منذ مطلع القرن العشرين، هي مجرد نشاطات ذاتية من صنع الإنسان الجزائري بتلقائية؟.. أم هي نتاج للتحولات الاقتصادية والاجتماعية؟

تؤكد العديد من الدراسات أن الإرادة البشرية تصنع مختلف أوجه الحياة البشرية، بمختلف تنويعاتها، وهذه الأوجه هي التي تحدد طبيعة الحياة التي ستكون جزءا من الوقائع التاريخية للبشر. وباستطاعة الإنسان أن يفكر بتلقائية وفق رؤية معينة تمثل قناعته الشخصية، ولكن لا يمكن للإنسان أن يخرج عن حدود واقعه الذي يعيشه.

في الغالب الأعم يكون الواقع نتاجا للتحولات الاجتماعية التي يعيشها الفرد، والتي تمثل واقعه التاريخي بعد ذلك. وتطور الظروف الخارجية المحيطة بالإنسان الجزائري، أنتجت تحولات جديدة حافلة بالأحداث التي شملت المحيط العربي والإسلامي بشكل عام. ويقف في مقدمة الأحداث الخارجية، حادث احتلال فرنسا لتونس سنة ألف وثماني مائة وواحد وثمانين ميلادي (1881م)، ثم احتلال بريطانيا لمصر سنة ألف وثماني مائة واثنين وثمانين ميلادي (1882م)، ثم كان الحدث الهام جدا وهو الانقلاب العثماني سنة ألف وتسعمائة وثمانية ميلادي(1908م)، ثم غزو إيطاليا لليبيا سنة ألف وتسعمائة وإحدى عشر ميلادي (1911م)، واحتلالها بعد ذلك، ثم كان احتلال فرنسا للمغرب سنة ألف وتسعمائة واثني عشر ميلادي(1912م). والنتيجة أن أصبح العالم العربي الإسلامي جراء ذلك « يعيش أحداثا جساما، وكانت الجزائر سبقت غيرها في المعاناة من هذا الاحتلال والتدخل الأجنبي تتابع تلك الأحداث وتعيشها، وقد ظهر ذلك في شكل نهضة ثقافية ذات طابع إسلامي»(3)، دون النظر في طبيعة الاستعمار الفرنسي الذي عمل بحنكة بالغة لكسب النخبة الثقافية في صفه، إلى جانب رجال الدين والأعيان.

يؤكد المحيط الخارجي أهميته القصوى في تنمية وعي الإنسان الجزائري، في وقت كان يجب أن يتسم بوعي فعلي إزاء التحولات الدولية الحاصلة. ومن هذا المنطلق يتبلور المفهوم الثوري بصفته القوة الطلائعية لتغيير الواقع القائم.

وبالنظر إلى حالة الانتعاش الفكري والثقافي التي صارت تعرفها الجزائر منذ مطلع القرن العشرين، يكون الوعي الثوري قد تبلور من خلال ما وفرته التحولات الدولية المحيطة. ولكن لا يمكن الأخذ بتلك التحولات على أنها التحولات الفعلية التي أدت إلى حالة الوعي التي بدأ يعرفها الفكر الجزائري الحديث، لأن منطق الصراع الطبقي أدى دوره التاريخي المنوط به في إحداث النقلة النوعية للفكر الجزائري الحديث، الذي صار يتبنى منطق التغيير الإيجابي.

وفي الكثير من الحالات يكون الحديث عن اللحظات التاريخية المناسبة لإحداث النقلة النوعية في مسار المجتمع والفكر البشري، وتلك اللحظات هي في أساسها لا تتم إلا وفق ما توفره حيثيات التطور التاريخي المحتكمة لمنطق التغيير المادي الخاضع للرؤية الاجتماعية والاقتصادية الآخذة في تطور مستمر. ومجمل الحيثيات الدولية القائمة، والتي صنعت أنموذجاتاريخيا لوعي الإنسان الجزائري، جاءت نتيجة عمليات تحول في المنظومة الاقتصادية والسياسية لكل حالة على حدة. وعليه فالجزائر وهي تراقب تلك التحولات التاريخية المذكورة، كانت تعيش حالة من التطور على مستوى البنية الاجتماعية والاقتصادية، على الرغم من أنها لا تشارك في صنعها إلا بقدر ما يسمح لها به المعطى التاريخي القائم آنذاك، والمعطى التاريخي هو ذاته الذي فرض عليها الموقف السلبي إزاء الأحداث والتطورات القائمة السائدة في ذلك الوقت، وهو المعطى الموسوم بالاستعمار الفرنسي.

تفسر حالة الانتعاش الفكري والثقافي التي عرفتها الجزائر منذ مطلع القرن العشرين، كنتيجة لتحول في المسار التاريخي للبلاد في ذلك الوقت. وهذه الحالة هي مجرد نتاج فقط، وليست أسبابا يمكن أن تنتج نتائج، لأنها هي في حد ذاتها نتاج لأسباب موضوعية وواقعية. والأدب الجزائري هو الصورة الواقعية لمظهر من مظاهر التطور التي عرفها الفكر الحديث في الجزائر، بحيث لا يكون الأدب هنا إلا رؤية أو تمهيدا لصراع طبقي سيكون فيما بعد، أو بدأ في التواجد.

يقر التصور الموضوعي بأن الرؤية الفكرية والأدبية لا تصنع وجودها بتلقائية، إنما الواقع القائم هو ما يصنع وجودها، فهي بذلك نتاج لواقع قائم تحدد وجوده طبيعة النظم الاقتصادية القائمة التي تحددها أنماط الإنتاج وعلاقات التوزيع بين الأفراد. لذلك فالإنتاج الفكري والأدبي هو رؤية لتلك النظم ذات الطابع المادي في صنعه للتاريخ. فعلى سبيل المثال لا تفسر حالة الركود الثقافي والفكري في الجزائر، إلا وفق ما تقتضيه الأنماط المعيشية للفرد ، بحيث لا يمكن العثور على مستوى معتبر على الأقل من التفكير في ظل وضع اقتصادي يتميز بالاضطراب وعدم الانسجام، مع البنية الطبقية للمجتمع الجزائري، لأن النمط الاقتصادي يصوغ مظاهر لنمط اجتماعي تحدد حالة تواجد الأفراد ضمن مجتمع معين، بحيث لا يمكن العثور على مستوى متقدم من التعليم مثلا في ظل تدهور اقتصادي فعلي.

وما يبرر إقبال الأدب الجزائري الحديث على تبني الرواية، هو منطق الصراع الطبقي الذي صاغته قوى الاستعمار الفرنسي، فنتيجة لأوضاع معيشية واجتماعية سائدة كانت الرواية الأنموذج الأدبي الأمثل الذي عرف كيف يجسد صراع القوى الاجتماعية، وطموحات الجماهير الطلائعية نحو تغيير شامل للوضع.

وبالعودة إلى أواخر القرن التاسع عشر، وفي حدود سنة ألف وثماني مائة وسبع وسبعين ميلادي(1877م) كتب الشيخ "عبد القادر المجاوي"1848م -1914م، رسالة في ثلاثين صفحة بعنوان" إرشاد المتعلمين"، تضمنت دعوة صريحة للجزائريين والمسلمين عامة، «إلى نبذ الركود، وإلى اليقظة، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة..وقد أصدر كتبا في موضوعات شتى عالج فيها بعض الجوانب الاجتماعية، والإصلاح الديني»(4)، من هذا الباب تكون شخصية المجاوي من أولى الشخصيات التي تركت رؤية فكرية ملموسة ذات بعد واقعي في الثقافة الجزائرية الحديثة، أواخر القرن التاسع عشر، امتدت آثارها إلى مطلع القرن العشرين.

وبالنظر إلى مضمون الرسالة يبدو المنحى التغييري واضحا إلى حد بعيد، حيث أنها كتبت لغرض محدد يهدف إلى الثورة على الوضع السائد في الجزائر آنذاك. في الوقت ذاته تثبت الرسالة وضعا سلبيا لا يتوافق مع طبيعة التحولات

التاريخية التي ينبغي أن تكون، وهو الوضع الذي تميز بالركود الذي يعني حالة من التدهور الاجتماعي في فترة من فترات تاريخ الجزائر الحديثة.

والمنظومة الفكرية التي تبناها الشيخ المجاوي، من باب الرؤية الحضارية التي تميزت بها، هي رؤية إصلاحية بالدرجة الأولى، اهتمت بإصلاح الوضع الاجتماعي والديني بشكل عام، وهو الإصلاح الذي يحمل المفاهيم الثورية التغييرية التي كانت الجزائر بحاجة إليها في وقت مضى، نتيجة التواجد الاستعماري.

مثلت منظومة التفكير في الثقافة الجزائرية الحديثة مشروعية أساسية ضمن مشروعية تاريخية شاملة، هي تلك التي جاءت نتيجة عوامل الصراع وتناقض القوى الاجتماعية والاقتصادية فيما بينها، بحيث تكون الثروة من هذا المنطلق قاسما مشتركا في تحديد المنظور الفكري التقدمي الجديد، الذي ينبغي أن يكون عليه الفكر الجزائري الحديث. ومنظومة الشيخ عبد القادر المجاوي رغم البعد الإصلاحي الديني الذي تميزت به، هي منظومة إيجابية لما اشتملت عليه من استيعاب موضوعي لخصوصيات الوضع الاجتماعي القائم آنذاك في الجزائر، وما قدمته من بديل نوعي من أجل إحداث التغييرات الاجتماعية اللازمة.وعلية فمنظومة التفكير في الثقافة الجزائرية الحديثة، وفق المفهوم الإصلاحي الديني لا تحقق مشروعية وجودها، إلا وفق تمثل الواقع الجزائري كشرط أساسي من شروط إثبات المشروعية.

وعليه فبداية الانتعاش الفكري والثقافي والأدبي في الجزائر، بررت وجوده تحولات تاريخية ذات الصلة المباشرة بالمعطيات الاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك، والتي صنعت شخصيات أدبية وفكرية كانت شخصية الشيخ عبد القادر المجاوي(5)، من أولى الشخصيات بفكر وطموحات فعلية لنهضة أدبية حقيقية، آملة في الإصلاح والتغيير حيث نشط الشيخ كأستاذ، وإمام، ومؤلف، وداعية إصلاح.

وقد تميزت أطروحاته الفكرية برؤية إصلاحية ذات بعد عقلاني يسعى إلى تحرير الفرد والثورة على الأوضاع. مع أن بعض كتاباته تنحو منحى تعليميا صرفا من باب المنفعة الشخصية والعلمية التي يمكن أن يحققها المتعلم. وهذا ما بينته رسالته "إرشاد المتعلمين"، هي عبارة عن كتاب في اللغة والبلاغة، ورد في مقدمته:« اطلعت من هذا الكتاب على ألفاظ رقيقة ومعان شيقة، وآداب فائقة، وحكم رائعة، تدل

على ما لمؤلفه من البراعة التامة والمعرفة العامة، وتشهد له بخلوص النية وحسن الطوية، اللذين ألجآه إلى نصح المسلمين، وإرشاد المتعلمين»(6).والملاحظ أن الفصل الأول من الكتاب خصص "لعلوم اللسان"، حيث مجد الكاتب فيه اللغة العربية، وأحلها مقاما أولا لا تنازع فيه، لما تميزت به من الدقة، وقوة الدلالة، وحكمة البلاغة، وإمتاع التعبير.والجدير بالذكر أن هذا الفصل المخصص للغة العربية، له دلالة واسعة على خصوصية المرحلة التاريخية التي وجد فيها الكتاب. حيث يمكن طرح السؤال الآتي: أكان الكاتب بحاجة إلى طرح قضية اللغة العربية، في قيمتها الحضارية، ثم الدفاع عنها بعد ذلك؟.. في البداية يمكن القول: بأن رسالة الشيخ المجاوي ليست كتابا علميا مكتملا من حيث المنهجية العلمية المعروفة، إنما هي رسالة تعليمية، ونصح في الآن ذات للمثقفين والمتعلمين الجزائريين في ذلك الوقت. وعليه فلن يخرج الكتاب عن إطاره التاريخي الذي وجد فيه، من التصدر للدفاع عن قيم الهوية الوطنية، وفي مقدمتها اللغة العربية، ثم قيم الدين الإسلامي بعد ذلك، وهذا ما ورد في الكتب اللاحقة ككتاب "شرح منظومة البدع"، مع أنه من تأليف تلميذه وصديقه "المولود بن الموهوب"، تصدر له الشيخ المجاوي بالشرح، وهو كتاب إصلاحي بالدرجة الأولى، يحارب مضمونه البدع والخرافات، والضلال الذي اجتاح المجتمع الجزائري الحديث إبان فترة الاحتلال الفرنسي. ثم كتاب "الاقتصاد السياسي"، وهو كتاب حاول فيه الكاتب الاقتراب نسبيا من طبيعة الدراسات والكتابات الحديثة. كما تطرق الشيخ المجاوي إلى بعض القضايا الدينية ذات الأبعاد الفلسفية والغيبية، ككقضيتي الجبر والقدر، في كتابه "تحفة الأخبار فيما يتعلق بالكسب والاختيار". ثم كان كتابه الفكري" القواعد الكلامية في التوحيد ومسائله"، حيث بدا« جهد المؤلف جليا في بحثه، وحرصه شديدا على الإفادة بأيسر السبل وأكثرها اقتصادا»(7).إلى جانب مخطوطة وضعها في علم الفلك بعنوان "منظومة في علم الفلك".

من الممكن الفهم أن هذه الكتب التي كتبها الشيخ المجاوي، كان الغرض من ورائها التعليم والتثقيف، والإفادة؛ وهذا صحيح من حيث الدور الذي ينبغي أن يؤديه كل كتاب يكتب، ولكن كتتمة للإجابة عن السؤال المطروح، هذه الكتب

وجدت بفعل الحتمية التاريخية السائدة في ذلك الوقت؛ إذ أن الدفاع عن قيم الدين الإسلامي، وكذا الدفاع عن اللغة العربية تصوغه حتميات ودواع وجدت في مرحلة تاريخية معينة. ومرحلة الاستعمار الفرنسي للجزائر، فرضت حتميات معينة صاغت وضعا تاريخيا يناسب تماما تلك الحتميات التي وجدت، حيث كان الدفاع عن قيم الدين الإسلامي الحنيف، واللغة العربية بدافع الحرب التي شنها الاستعمار ضدهما.

أثبتت تلك الكتب بعض خصوصيات الفكر الإصلاحي الحديث، من خلال رؤية الشيخ المجاوي، حيث وجدت هذه الرؤية «ضمن اهتمام عام، هو الاهتمام التعليمي الذي طبع بالطابع المدرسي من وحي تلاميذه؛ يسهل لهم المسائل ويضبط المعلومات التي كان الحفظ يلعب دورا أساسيا، في الاستفادة منها، عاجلا، أم آجلا»(8). لذلك فالرؤية الإصلاحية في الجزائر، لا يمكن أن تفهم بعيدا عن الحتمية التاريخية التي أعطتها شرعية الوجود، بحيث أن الشئ الذي أنتج النقيض هو الشرط التاريخي نفسه الذي مكن الجدلية التاريخية من الاستمرار وفق ما تقتضيه التطورات الجديدة الحاصلة.

وإن كانت منظومة الشيخ"عبد القادر المجاوي" تقدم في الأدب الجزائري الحديث، على أنها أنموذج فكري نوعي لحركة إصلاحية طلائعية، ومقدمة لإرهاصات فكرية أنتجت واقعا جزائريا جديدا، أخذ في الانتعاش شيئا فشيئا، فلا بد من الفهم كذلك أن التحولات التاريخية الجديدة ساعدت في إيجاد ذلك الواقع الجديد؛ والمقصود بذلك سياسة المرونة التي اتبعتها فرنسا في عهد الحاكم الفرنسي للجزائر "شارل جونار" ما بين سنتي ألف تسعمائة وثلاث، وألف وتسعمائة وإحدى عشر ميلادي(1903 -1911م).

وتثبت الوقائع التاريخية أن شخصية شارل جونار تميزت بالانفتاح على الشخصية الجزائرية في أبعادها الحضارية، من لغة عربية، ودين إسلامي(9).فاهتم بتنظيم رحلات للمثقفين الجزائريين إلى فرنسا، بغرض الاحتكاك بالآخر ومعرفة ما لديه من علوم ومهارات. كما سعى لإحياء التراث العربي الإسلامي، وإقامة نوع من الحوار الحضاري، بين القيم الحضارية الجزائرية ذات الأبعاد العربية الإسلامية، وقيم الحضارة الأوروبية الحديثة، تمثلها فرنسا بخصوصياتها الثقافية والفكرية

والعلمية. وحرص أيضا على« التقرب من طبقة المثقفين التقليديين، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم القديمة، كإقامة الدروس في المساجد وغيرها. كما عمل على تجديد برامج التعليم في المدارس العربية الفرنسية. وقد كانت لسياسته أبعد الأثر على الحياة الثقافية في الجزائر»(10).

إن خصوصية التحولات التاريخية التي طبعت الجزائر، أدت إلى انعكاسات مباشرة على مستوى الفكر والأدب، فصاغت مفاهيم جديدة أسست لنسق ثقافي جديد تميز هو الآخر بالتحول والتجديد. ومع أن الاستعمار الفرنسي كان سببا مباشرا في إحداث تلك التحولات الجديدة، إلا أن الأسباب الموضوعية هي من صميم المعطيات الاقتصادية والاجتماعية الصرفة؛ إذ أن اللحظة التاريخية آنت من أجل احتواء وضع لا من أجل تغييره تغييرا جذريا. ولكن ما طبيعة تلك التغييرات التي أقرتها فرنسا في الجزائر، والتي مست مسار تحولها التاريخي؟

في الحقيقة لا يمكن الاعتقاد أن تلك الإصلاحات التي أقرها شارل جونار، يمكن أن تؤدي إلى تحول فعلي في مسار تاريخ الجزائر. والتحولات التي حدثت على مستوى الذهنية الجزائرية في ذلك الوقت، كانت تحولات جزئية لأنها مست نخبة معينة فقط من المجتمع الجزائري، كما أنها كانت تحولات سطحية وفق ما يخدم طبيعة السياسة الاستعمارية في الجزائر. لذلك سيبقى الوضع متميزا بالشوفينية التي لا تحدث التغييرات الفعلية، وفق المفاهيم الثورية.

وما يبرر التوجه الشوفيني هو سعي فرنسا ذاتها لتوجيه الإصلاحات الجديدة، توجها يخدم مصالحها الأرستقراطية الهادفة للحفاظ على الثروة، ومراكز النفوذ. فلم تكن تلك الإصلاحات الجديدة سوى مظهرا فقط من مظاهر الصراع الطبقي الهادف إلى الحفاظ على مصالح الطبقة الراقية في المجتمع الفرنسي.

والملفت للنظر أن تداعيات الإصلاحات الفرنسية في الجزائر، تجاوزت نتائجها على مستوى الثقافة والأدب حدود نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث برز العديد من الكتاب والشعراء الجزائريين، من أشهرهم: الشيخ "أبو القاسم الحفناوي" 1852 -1942م، صاحب كتاب "تعريف الخلف برجال السلف"(11)، وهو أشهر ما ألف، وعرف عن هذا الكتاب بأنه من أشهر أمهات المصادر في التراث الجزائري

بشكل عام، حيث تجب العودة إليه لاشتماله على قائمة طويلة وهامة لأعلام الفكر والثقافة والدين والأدب، بلغ عددهم الأربعمائة وثماني عشرة شخصية(418 شخصية)، إضافة لاحتوائه لنصوص ذات أهمية بالغة، قد يتعذر العثور عليها اليوم في كتب أخرى متخصصة.

إلى جانب شخصية الشيخ أبي القاسم الحفناوي، تعد شخصية "سعد الدين محمد بن أبي شنب"1286 -1347ه\1869 -1929م، من أهم رجالات ومفكري تلك الفترة. وهي شخصية ذات تميز علمي لتكوينها الأكاديمي الجامعي، حيث يعد باحثا جامعيا بدرجة "الدكتوراه" آنذاك، والتي تحصل عليها برسالتين علميتين في تخصص الأدب واللغة من "جامعة الجزائر". كانت رسالته الأولى عن الشاعر العباسي "أبو دلامة"، والرسالة الثانية عن الألفاظ التركيبية والفارسية في اللهجة العامية الجزائرية.

كتب الدكتور سعد الدين بن أبي شنب باللغتين العربية والفرنسية، «فأنجز مجموعة كبيرة من البحوث والدراسات، كما حقق آثارا أدبية من أهمها"رحلةالورتلاني" (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) التي حققها وكتب تقديما لها، وقد نشرتها مطبعة "بيير فونتانة" بالجزائر سنة 1326ه\1908م،التي شرعت تقوم بدور ذي أهمية في طبع التراث بمؤازرة من "جونار" تطبيقا لسياسته الثقافية. إلى جانب مطبعة "الثعالبية" لصاحبيها الأخوين: "ردوسي قدور ومراد"»(12).

وقد كان لابن أبي شنب إسهاما كبيرا في محيطه الجامعي، وكذا في علاقاته العلمية داخل جامعة الجزائر وخارجها .كما وضع مؤلفات ومقالات عديدة، فكان أحد الذين تطور الأسلوب الأدبي على أيديهم تطورا ملحوظا، محققا بذلك خطوات إضافية في تطوره رغم إبقائه على بعض المحسنات البديعية، واستخدام غريب اللفظ لاسيما في مراسلاته الشخصية.

تركزت أنشطة ابن أبي شنب العلمية والثقافية، في إعداد البحوث والمقالات وتحقيق الآثار، كما قدم محاضرات علمية، فأسهم بذلك مساهمة فعلية في انتعاش الحياة الثقافية في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين، فتجاوز بذلك صوته وطنه

الجزائر الذي مثله عن جدارة واستحقاق، إلى الخارج فكانت مشاركاته هامة في مختلف اللقاءات والمؤتمرات العلمية، محافظا بذلك على انتمائه الوطني، معتزا بقيم دينه الإسلامي الحنيف، متمثلا لخصوصيات حضارية إنسانية راقية، رغم محيطه الفرنسي الذي عمل فيه، ورغم رعاية فرنسا لأعماله العلمية طباعة ونشرا وتوزيعا.

هي إسهامات ثقافية فعلية قدمها جزائريون مثقفون، ومصلحون، وجامعيون، منذ نهاية القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين. وقد قامت فرنسا برعاية تلك الأعمال الثقافية والعلمية، بطبعها ونشرها وتوزيعها، وتكريم منجزيها أحيانا. فمن الممكن الاعتقاد بأن النخبة الثقافية الجزائرية وجدت أصلا في بلادها، ودور فرنسا أنها ساندت هذه النخبة لاسيما أولئك الذين تبنوا توجها "فرنكوفيليا" صرفا. ومن الممكن أن تكون إرادة الإنسان الجزائري سببا رئيسا في وجود انتعاش ثقافي حقيقي في الجزائر خلال تلك الفترة التاريخية، وإلا فكيف يمكن لشخصية مثل شخصية سعد الدين محمد بن أبي شنب أن تتحول من معلم في المدرسة الابتدائية إلى أستاذ جامعي، وأكاديمي قدير بجامعة الجزائر في تلك الفترة العصيبة؟ ..هي افتراضات رغم معقوليتها ومنطقيتها، لكنها تفتقد للموضوعية الفعلية. من باب أن الأسباب الواقعية تنقصها، فلا يمكن التفكير في رؤية موضوعية لتفسير ظاهرة ما، بعيدا عن الأسباب الواقعية التي أنتجتها. وعليه فحالة الانتعاش الثقافي التي سادت الجزائر منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، هي نتاج لتغيرات موضوعية في مسار حركة التاريخ، التي بدورها احتكمت لجملة معطيات اقتصادية صرفة، كان لها الأثر المباشر على نمط تفكير الفرد الجزائري.

وإذا كان من الممكن الاعتقاد بالدور التاريخي لفرنسا في دعم الحياة الثقافية في الجزائر آنذاك، فلا يمكن أن تتعلق القضية ببعد وطني خالص، لأن علاقات الصراع هي التي ستفسر الموقف فيما بعد، وتحسمه الحسم الموضوعي.كما لا يشكل قانون الرابع من شهر فيفري سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر ميلادي(04\02\1919م)، نقطة تحول موضوعية في مسار الوعي لدى الإنسان الجزائري، إذا ما تم الاعتقاد الفعلي بطبيعة الاستعمار وسوء نواياه. ومع كل هذا لا يمكن الفهم بأن البدايات الأولى للوعي الفكري والثقافي في الجزائر كانت من

صنع الفراغ، يقين أن الوعي ساعة وجوده لامس بيئة بشرية معينة مهما كانت طبيعتها وخصوصيتها. ومن الممكن جدا أن تتعدد التفسيرات والتأويلات حول طبيعة بدايات الظاهرة الأدبية في الجزائر، ولكن لا يمكن الخروج عن الإطار الموضوعي لتفسير الظاهرة، المتمثل في التطور الجدلي للواقع المعاش.

إن أهم استنتاج يمكن أن يتأكد بشأن البدايات الفعلية لأدب جزائري حديث، هو ما أثبته التطور الجدلي للوقائع التاريخية، التي هي في الأساس الإسهام الفعلي في صناعة الوعي البشري. والوقائع التاريخية التي حدثت مثل الليونة التي انتهجتها فرنسا مع الشعب الجزائري، وإقرارها جملة إصلاحات ضمن قانون الرابع من شهر فيفري سنة ألف وتسعمائة وتسعة عشر ميلادي(04\02\1919م)، هي مجرد جزئيات فقط بعيدة عن رؤية موضوعية في تفسير بدايات تطور الظاهرة الأدبية في الجزائر، وهي جزئيات ضمن منظومة تاريخية كاملة، لا يمكن أن تفسر بعيدة عن أطر التحولات الاجتماعية والاقتصادية الحاصلة.

ومن جانب آخر فمحدودية النخبة الثقافية الجزائرية آنذاك، يعطي نظرة عن صعوبة الوضع التاريخي السائد، وهي صعوبة لا تفسر بمعنى التثبيط أو التيئيس من الشئ بحيث يمكن لهذه النخبة أن تتأسس كنواة لرؤية مستقبلية ستعرف التحولات المشروعة حين تحين اللحظة التاريخية المناسبة.

ومن الممكن أن يطرح موضوع عمالة تلك النخبة الثقافية الجزائرية لفائدة المستعمر، بحكم ما يتمتع به هذا الأخير من سعة أفق مستقبلي، وهذا موضوع وارد من باب أن المستعمر يمكن أن يصطفي لنفسه مثل تلك النخب التي تؤدي دورا هاما في إنشاء وعي داخلي يعمل لصالحه، ويحافظ على مصالحه الطبقية وامتيازاته الاجتماعية. لكن عامل التطور يبقى مطروحا من خلال ما تفرضه التحولات التاريخية على تلك النخبة الثقافية من أدوار، من شأنها إنتاج نخب نقيضة تعمل لفائدة واقع تاريخي جديد يحقق طموحات الطبقات الشعبية.

ب -الشعر الجزائري الحديث.. بداية التحول النموذجي

تم تسجيل الفترات الأولى للنهضة الفكرية والأدبية الجزائرية الحديثة، مع نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وهي النهضة التي كانت نتاجا حتميا

لجملة من التحولات التاريخية الجديدة، والتي أنتجت منحنيات فعلية في مسار الفكر الجزائري الحديث.

ولعل الجديد الذي حملته تلك الفترات التاريخية، هو بداية الوعي بأهمية إيجاد رؤية فنية على مستوى الإنتاج الأدبي، تحدد خصوصية التعبير عن المراحل القادمة.لذلك برزت أسماء شعرية عديدة خلال تلك الفترة، وربما كان أهمها ثلاثة أسماء رئيسة، أسهمت بقسط وافر في تنشيط الحركة الثقافية في الجزائر آنذاك، وعرفت بالشعر بالدرجة الأولى. أولى هذه الشخصيات شخصية "محمد بن عبد الرحمان الديسي"، وثانيها شخصية" عاشور بن محمد بن عبد الله الخنقي"، والشخصية الثالثة شخصية "عمر بن قدور الجزائري". ومع اتفاق هؤلاء الثلاثة في التكوين الديني والثقافي، إلا أنهم يختلفون من حيث الرؤية الفنية، و نظرتهم إلى القضايا المطروحة، إلى جانب اختلافهم في طبيعة مواقفهم، وتفاعلهم مع الأحداث الوطنية والدولية التي تخص العالم العربي والإسلامي بشكل عام، وهذا بحسب نشأة كل واحد منهم، وطبيعة محيطه، وصلاته، ونشاطاته أيضا.

في الحديث عن شخصية الشيخ" محمد بن عبد الرحمان الديسي"(13) لابد من التطرق إلى الأغراض الشعرية التي نظم فيها قصائده. وعلى العموم هي قصائد لا تخرج عن الأطر المضمونية والفنية التي عرفها الشعر العربي القديم، بحكم عامل الوصل، الذي طبع أنماط العلاقات بين المغرب العربي والمشرق العربي، حيث أجاد الشاعر على وجه الخصوص في غرضي المديح والغزل. يقول في إحدى مقطوعاته الغزلية:

يا حسن مبسمها الشهي إن ضحكت تألق البرق من بين الحناديس

أشرت للوصل أن صلي فما فهمت ولا فهمت من المعنى سوى"ديسي"

فأودعت مهجتي من حبها حرقا يا حيرة القلب من تلك الوساوس(14)

يبدو الحديث واضحا حول رؤية النص لجمال امرأة معينة، وبغض النظر عن كون هذه المرأة متواجدة وجودا فعليا واقعيا، أم افتراضيا خاضعا لتصورات وخيال الشاعر، فالأهم أن هناك وعيا جماليا يخص رؤية معينة إزاء المرأة الجزائرية.

وإذا كان بالإمكان الأخذ بالافتراض القاضي بالتصور الذهني إزاء المرأة، فهذا يقود بشكل مباشر إلى ربط النص الأدبي بطبيعة بيئته التي نشأ فيها. في هذه الحال يجب النظر في خصوصيات البيئة الجزائرية الحديثة على وجه الخصوص، بحكم أنها تمثل مصدرا أساسيا من مصادر النص، وكذا موطن حياة الشاعر مبدع النص.

تثبت ملاحظة المقطوعة الشعرية معايشة شعورية واضحة مع المرأة، من حيث تطرق النص إلى طبيعة الابتسامة في حال الضحك، ثم التصوير الفني لها الذي تبع التصوير الواقعي في الشطر الثاني من البيت الأول. ونتيجة الإعجاب كانت الخطوة الموالية وهي طلب الوصل الذي لم يقابل باستجابة. ثم كانت النتيجة الثانية، وهي بقاء الشاعر على درجة من الحيرة والحرقة والتفكير، وهذا ما تضمنه البيت الثالث من المقطوعة الشعرية.

وبالنظر إلى طبيعة المنطلق الذي تحدده خصوصيات بيئية معينة، تتعلق بالبيئة الجزائرية التي عاشها الشاعر، تبدو المحافظة بادية إلى حد بعيد، لذلك لا تبدو المعايشة الواقعية للمرأة من لدن الشاعر، إلا وفق ما يمكن أن يقدمه الخيال بشأن جمال المرأة الجزائرية، وما تكون عليه من صنوف الفتنة والإعجاب. لكن المهم هو البعد الثقافي للنص الذي صاغ مفهوم التصور الجمالي إزاء المرأة، حيث يمكننا هذا البعد من نفي ظاهرة الفراغ الثقافي في الجزائر خلال تلك المرحلة التاريخية الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، رغم محدودية الأسماء الإبداعية. في الوقت ذاته يفسر البعد الثقافي للنص و الإرادة الفعلية للمبدعين الجزائريين في النهوض بأدب جزائري واعد، له طبيعته البيئية وخصوصيته الجمالية.

ويبدو التنوع في الأغراض الشعرية للشاعر عبد الرحمان الديسي بحسب طبيعة النمط الجمالي، والتكوين الأدبي، والاستعداد الفطري. ومدحه للرسول "ص"، وكذا شيوخ زاوية الهامل ببوسعادة دليل على ذلك، خصوصا مدحه لشيخها المؤسس" محمد بن أبي القاسم".

ومع التزام الشاعر المطلق بالنمط التقليدي، فقد وجدت الإضافة الشكلية والمضمونية في الصيغ التعبيرية، التي عكست شخصية الشاعر بنوازعها المختلفة،

كما عكست قناعاته الدينية والوطنية والعاطفية. وقصيدة الحميدية التي نظمها عن السلطان العثماني "عبد الحميد الثاني"، عندما أطيح به، تعكس بشكل مباشر الاهتمام المطلق للشاعر بمختلف القضايا الدولية التي تخص العالم الإسلامي، والمحيطة بالجزائر، وذات الانعكاس المباشر عليها. وتبرز القصيدة حزنا عميقا أعرب عنه الديسي إزاء خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن عرشه، لما تبع الحادثة بعد ذلك من انتكاسات عربية وإسلامية، يقول:

ثنائي على عبد الحميد حميد وحزني عليه ما حييت جديد
فيا خالعيه قد خلعتم بخلعه قلوب جميع المسلمين فبيدو
تسميتموا حزب الترقي سفاهة وصنعكم للانحطاط بريد

دخل الديسي بهذه القصيدة معتركا هاما في الحياة السياسية الدولية، وفق منظوره الحضاري الذي ميزه الوعي الكبير بقضايا أمته العربية الإسلامية. ووفق هذه المقطوعة المقدمة يمكن الوقوف مجددا، على خصوصية الوعي الفكري والثقافي في النص الشعري الجزائري الحديث، بحيث أن الحديث عن تحول تاريخي كذاك الذي حدث في الدولة العثمانية في ذلك الوقت، يثبت مرحلة وعي ذهني جديدة بدأت في التشكل والتأسيس.ومن الممكن الإقرار بأن التحولات الفكرية التي طبعت النص الشعري الجزائري الحديث، اكتسبت مشروعيتها الفنية والتاريخية من خلال ما سعت إلى تجسيده من رؤية تحولية مميزة تستجيب لطبيعة الظرف القائم.

يتعلق مضمون المقطوعة الشعرية، بتحول جديد في مسار تاريخ العالم الإسلامي، وفي خلافة إسلامية، مثلت قوة عظمى آنذاك. يخص هذا التحول عزل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، الذي عرف بمواقفه المشرفة إزاء قضايا الأمة العربية الإسلامية، لاسيما فيما يتعلق بالمقدسات منها. هذا الموقف يثبت علاقات صراع فعلية موجودة بين قوى متضاربة من حيث المصالح المتبادلة. في هذه الحال يكون "حزب الترقي" القوة المقابلة إزاء القوة التي يمثلها السلطان عبد الحميد الثاني.

وتشير المصادر التاريخية، إلى أن حزب الترقي هو جماعة يهودية، كانت تسعى لدى السلطان عبد الحميد الثاني، من أجل اقتطاع جزء من أرض "فلسطين" لإقامة وطن قومي لها، وكانت منطقة "السالونيك" في "إسبانيا" من أهم مراكزها

آنذاك، للاجتماع والانطلاق في نشاطاتها. وعرف كذلك السلطان عبد الحميد الثاني بمواقفه المشرفة جدا إزاء القضية الفلسطينية التي بدأت أولى خيوطها تنسج، من باب رفضه القاطع لطلب تلك الجماعة اليهودية، رغم الإغراءات الكبيرة التي عرضت عليه من قبلهم.

من هذا الباب يبدو النص قابعا خلف أفق تاريخي، يعطي تفسيرات هامة لأبعاده الحضارية، التي تتأسس في أصولها من خلال خلفية الصراع الدائر بين مصالح القوى المختلفة. وطبيعة تفاعل النص مع ذلك الصراع يكمن في مدى وعيه واستجابته لطبيعة الظرف القائم، وهذا بحسب خصوصية المحيط الدولي المتميز بصراعات القوى المختلفة.

إن الحدث الذي باشر النص إلى إثرائه يمثل أنموذجا نوعيا لصراعات البنى الطبقية فيما بينها، فلا يمكن تصور حادثة عزل السلطان عبد الحميد الثاني من على عرشه مجرد حادثة تاريخية، تتعلق بعزل حاكم، وإحلال حاكم آخر مكانه، إنما تتجاوز الحادثة الآفاق السطحية لتبين عن صراع طبقي عميق يكفل لفئة طبقية معينة السيطرة والاستحواذ، ثم الدفاع عن مصالحها وامتيازاتها بعد ذلك.

ولا يمكن تفسير موضوع الصراع هنا من باب الخطأ التاريخي المحتمل الحدوث، أو من باب الصراع الذي غالبا ما يكتنف حاشيات الحكام، حيث أن التفسير العلمي يقر بأهمية علاقات التناقض القائمة وسط البنى الفاعلة، والتي أدت بالتأكيد إلى وجود القوى السياسية المتصارعة فيما بينها، والتي كان من مظاهرها الواقعية عزل السلطان عبد الحميد الثاني من على عرش الخلافة العثمانية آنذاك.

وتستوقفنا المقطوعة الشعرية مجددا مع عامل الشعور الإنساني الذي أبدته، مع أن الشيخ عبد الرحمان الديسي نوع في أساليبه وأغراضه الشعرية، وفق طبيعة مواهبه «التي غذاها بنصيب من التراث الشعري العربي القديم، فاستجابت للتعبير عما يتصوره، أو يعتمل في ذهنه من عواطف وأفكار في مختلف الأغراض، فكان النصيب الأكبر من شعره للمديح وللغزل، وفيهما كانت شخصيته أوضح مما في سواهما من موضوعات تتأرجح في بعضها بين المدح والتفاؤل من جهة، والزهد والتشاؤم من جهة ثانية، خضوعا لظروفه الخاصة تجاه الحياة ومع

الناس»(15).ويحقق عامل الشعور انسجامه من خلال طبيعة الوعي بخصوصية الظرف التاريخي، الخاضع لتحولات جديدة لفائدة فئات معادية للأمة العربية الإسلامية، وهذا ما أكده البيتان الآتيان:

فيا خالعيه قد خلعتم بخلعه قلوب جميع المسلمين فبيدو

تسميتموا حزب الترقي سفاهة وصنعكم للانحطاط بريد

وسمة الوعي هي ما يمكن أن يتحقق من تناسق مع الواقع المعاش، بحيث لا تكتسب القيمة الشعورية أهميتها الفنية، إلا وفق ما يتحقق لها من وعي موضوعي بأهمية المرحلة التاريخية الجديدة.

ويبدو الشعور لصيقا بطبيعة التحول الجديد، وفق ما جره هذا الأخير من تدهور على الأمة العربية الإسلامية، لذلك لا تتعلق حادثة خلع السلطان عبد الحميد الثاني، بمجرد عزل من الحكم بقدر ما تتعلق باستمرارية سقوط فعلي لآخر خلافة شهدها المسلمون آنذاك، لما كان معلقا من آمال وطموحات على ذلك الخليفة العثماني. لذلككان مدلول تسمية حزب الترقي على غير اسمه الظاهري، لما كان عليه من حقيقة داخلية، تتميز بالسفاهة وصنع الانحطاط، والعمل من أجل غايات استعمارية وتسلطية بحتة.

يمكن الوقوف على مكون هام من المكونات الثقافية للشعر الجزائري الحديث، لاسيما فيما يتعلق بالموروث الديني المشكل للخلفية المرجعية للإبداع. ويشاع لدى الشعراء الجزائريين الذين نظموا خلال البدايات الأولى للحركة الأدبية في الجزائر، التوجه الصوفي. وهو التوجه الذي شكل الخصوصية المذهبية للحركة الشعرية الجزائرية الحديثة، في مرحلة من مراحل تطورها.

ويمثل احتضان "الزوايا" لمثل ذلك التوجه عاملا هاما في بلورته، وإثبات وجوده، وانتشاره في أوساط الجماهير الجزائرية، لما له من مرجعية مقدسة، وسهولة التواصل، وسلاسة الفهم والتلقي. وللأوضاع الاجتماعية النصيب الأوفر في ذيوع الاتجاه الصوفي في الشعر الجزائري الحديث، لما كان عليه المجتمع الجزائري آنذاك، من محدودية التعليم خاصة، بحيث لا يجد الفرد الجزائري أمامه سوى

الزوايا كملجأ آمن للدراسة والتعليم، والتكفل به.وليس بعيدا أن تبرز نخبة مثقفة ذات مواهب أدبية، بأبعاد صوفية وفق ما تقتضيه طبيعة المحيط.

وفي الأغراض الشعرية للشيخ عبد الرحمان الديسي، يقف المدح غرضا أساسيا، لما أولاه الشاعر من اهتمام خاص لمشايخ "الزاوية القاسمية" التي ينتمي إليها، خاصة شيخها المؤسس "محمد بن أبي القاسم"، وهو الغرض الشعري الذي غالبا ما ساد في ديوانه.

ولا يتصور وجود الشيخ عبد الرحمان الديسي لوحده فقط، ضمن ذاك التوجه، وضمن الزاوية نفسها؛ حيث كانت شخصية الشيخ "عاشور الخنقي"(16)، الشخصية الموازية لما عرف عنها من ترفع وتطرف طرقي. ومن الناحية الفنية هو رجل العبارة القوية، والقافية المتزنة. ومن الناحية الوطنية كان يتجنب باستمرار العمل في الإدارات الفرنسية عملا بوصية أستاذ له(17).

يبقى الانتماء الديني ذو التوجه الطرقي قاسما مشتركا بين الشيخ الديسي والشيخ عاشور، وهو الحس الإسلامي الذي انطلقت منه رؤاهما الفنية والوطنية بعد ذلك، تماشيا مع طبيعة الظروف السائدة في ذلك الوقت. وهي الرؤية التي عرفت تطورا نوعيا لدى الشاعر الجزائري" عمر بن قدور"(18)رغم قلة إنتاجه الأدبي. وما يؤثر له أنه كان صوتا وطنيا مخلصا، منفعلا و متفاعلا مع القضايا الوطنية، شديد الإخلاص لانتمائه الحضاري ذي الأبعاد العربية الإسلامية.

وقد أدى شعره دورا وطنيا مميزا، كانت له انعكاسات فعلية على المستوى الدولي(19). وخلال الحدث الهام المتعلق بالتحولات الحاسمة التي عرفتها الخلافة العثمانية، كانت له مواقفه لما لحق الأمة العربية المسلمة من تشتت، وعبث الأيادي الأجنبية. يقول في قصيدة "دمعة على الملة":

أيا قوم ما تحلو لقلبي حياته وقد دوخ(السمحاء)هول فناها
بكائي عليها، لا على الخل و الحمى وخوفي عليها لا أريد سواها
ضيعت،فضاع المجد منا ولم نكن شدادا وقد هم القضاء لقاها

تحدد المقطوعة خصوصية جمالية لما صار عليه الوعي الجزائري، من تطورات نوعية. حيث يقف النص أمام تطور تاريخي هام، تعلق بالبدايات الفعلية لتراجع

الخلافة الإسلامية العثمانية أمام ضربات القوى الغربية الاستعمارية. ومن المعقول جدا أن يوجد تفاعل وجداني نوعي إزاء مثل تلك الأحداث، و التطورات الجديدة الحاصلة.

وما يفهم أن الخلافة العثمانية، في أواخر عهودها، وكذا في فترات سابقة نسبيا، تحولت إلى نظام شبيه" بالكوسموبوليتية"، وهو نظام شمولي يسوده الاحتكار، والاستئثار بالثروة. حيث أنه لو لم يكن مثل هذا التوجه لما كان لتلك الخلافة أن تضعف، لتصير نهبا بعد ذلك للقوى الاستعمارية.

لذلك فنظرا لما أنتجته "الكوسموبوليتية"، كان لزاما على تلك الخلافة أن تتراجع، حتى لو طال بها الأمد، بحكم علاقات اللانسجام في البنى الطبقية التي نتجت جراء ذلك النظام. والوعي الملاحظ في النص هنا، هو وعي مناهض تماما لرؤية الكوسموبوليتية، بحكم التعايش المستمر للتطورات الجدلية التاريخية، وبحكم طبيعة الوعي في حد ذاتها ذات الانسجام المطلق مع خصوصية الوجود الإنساني. فالضمير الإنساني هنا يبدو على درجة من التوقد والوعي المطلقين، بخطورة ما يجري من أحداث، وتطورات متسارعة. وتبدو مواطن الصراع من خلال النتيجة المحتومة التي آل إليها ذلك الضمير، من تأسف وحسرة على ما آلت إليه شؤون الخلافة الإسلامية في العصر الحديث، وهو الأسف الذي لا يمكن أن ينتج من فراغ حقيقي، حيث أنه بضياع تلك الخلافة تضيع معه آمال حضارة إنسانية بأكملها، حققت تميزا نوعيا على امتداد عصور ذهبية للتاريخ الإنساني.

وفي الوقت نفسه لا يدخر النص حديثا عن الأسباب الفعلية التي أدت إلى تلك النتيجة، وهي أسباب مجتمعة في ضعف العرب والمسلمين على حد سواء، وهذا ما أشار إليه النص:

ضيعت، فضاع المجد منا ولم نكن شدادا وقد هم القضاء لقاها

يكون الضعف هنا سببا مباشرا للتواري والانزواء، وهي حتمية تاريخية معروفة، تفسرها عوامل تبادل مواطن القوة والصراع، بين الأطراف غير المنسجمة فيما بينها. ومن منظور موضوعي لا يمكن أن يفهم الصراع هنا إلا وفق ما تخوله طبيعة البنى الطبقية السائدة، من إنتاج نظام كوسموبوليتيكي، يأخذ من النظرة الشمولية أنموذجا للبقاء. وهذا تفسير حالة التدهور والانهيار الذي عرفته الخلافة

العثمانية، نتيجة الانحراف عن قيم العدل والمساواة، وخلق الفوارق الاجتماعية في المجتمعات العربية التي كانت تحكمها.

تأخذ المشاعر الإنسانية صفة الانكسار الواضح في مسار تعبيري آخر، نتيجة الأسباب ذاتها التي ألحقت بالأمة العربية الإسلامية، الهزائم والانكسارات. وقصيدة "ياشرق" للشاعر نفسه، تثبت قصور رجال الفكر والسياسة والدين، الذين تنازعوا فيما بينهم فأعانوا الأعداء عليهم.

ياشرق هل هذي المصائب تتجلى أو ينتهي الغليان من ذا المرجل
ياشرقنا حتى متى تنجلي المنى أم ذي المنى عنوان ما لم نعمل
قد خلتها هيفاء تنفر كالمها وعشيقها أضناه كيد العدل
أدنف عراه اليأس حتى قلبه يقضي السنين بحسرة وتململ
ياشرقنا ما لعقول قومك لا تعي نصحا من الماضي إلى المستقبل
ياشرقنا يكفيك ما هو حاصل فأعد فعال السالفين البسل
وانهض همتك واتخذ لك قوة مقرونة بالسعي دون تمهل
إن القوى عند الشدائد تبتغى بالحزم والتدبير، ثم الصقل

يبدو السؤال المطروح في بداية المقطوعة، منسجما انسجاما كليا مع مشاعر الشاعر، بحكم انعكاس المعاناة انعكاسا مباشرا على الحالة الشعورية المثبتة في النص.

ويمثل العامل التاريخي المحور الفعلي للمعاناة، من خلال التطورات الجديدة التي لم تكن في صالح الأمة العربية الإسلامية التي يجسد الشاعر معاناتها.

ونتيجة وقوف التاريخ عند نقطة معينة وافتقاده للسيرورة المطلوبة، تبدأ المعاناة، لتتطور سلبيا في اتجاه جديد يبتعد عن الطموحات المرجوة.ومن هذا المنطلق، تكمن مشروعية السؤال الذي طرح في بداية النص.والسؤال الوارد في البيت الرابع يقترب إلى حد ما من تقرير حالة اليأس التي تثبت حال الأمة الذي هو موضوع حديث الشاعر. ومع ذلك يحقق الوعي مستوى من التقدم حين تبدأ مساءلة التاريخ بداية من البيت الخامس:

ياشرقنا ما لعقول قومك لا تعي نصحا من الماضي إلى المستقبل؟

ياشرقنا يكفيك ما هو حاصل فأعد فعال السالفين البسل

تفسر ظاهرة التخاذل هنا، من منظور تاريخي صرف يحتكم لطبيعة التطور الجدلي للتاريخ، وفق الأحداث الموجودة على أرض الواقع. وحالة الوعي التي يجسدها النص، هي في أساسها قائمة على منطق الصراع والتحولات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية في آن واحد. لذلك يؤكد الوعي على أهمية الاستيعاب الموضوعي للتاريخ، الذي يجسده النص في مصطلح "الماضي"، وهو الماضي الذي ينبغي أن يستوعب استيعابا موضوعيا، لضمان إيجابية المستقبل.

ويواصل الوعي تطوره في منحى تقويمي ثوري إلى حد ما، في البيت الموالي مباشرة، وذلك بلهجة خطابية في صيغة المناداة(ياشرقنا يكفيك ما هو حاصل..). هنا يتوقف الخطاب عند حدود الوعي المطلق لطبيعة التحول التاريخي القائم؛وهو التحول الذي يجسده الواقع الجديد للأمة العربية الإسلامية. يفسر هذا الواقع الجديد بنتيجة من نتائج الصراع الطبقي، التي أفضت إلى نتيجة سلبية جديدة انتجت ذلك الواقع، الذي صار موضع تخبط ويأس للأمة العربية الإسلامية.

وفي التفسير الكرونولوجي(الزمني)،يتزامن تاريخ كتابة النص، مع الوضع الحرج الذي كانت تمر به الأمة العربية الإسلامية؛ حيث أنه إذا كان من الممكن الاعتبار بتاريخ سنة ألف وتسعمائة وثلاثة عشر ميلادي (1913م)،وهو تاريخ ظهور النص الشعري، معروف جدا أن ذلك التاريخ مثل من قبل الوضع الصعب الذي مرت تلك الأمة، من باب وقوعها باستمرار تحت نير الاستعمار الأجنبي. مع الأخذ بعين الاعتبار دائما التفكك المستمر، والذي يكاد أن يصل أواخره للدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية، حيث استمر ذلك التفكك لتسقط نهائيا سنة ألف وتسعمائة وأربعة وعشرين ميلادي (1924م)، نتيجة سياسة "التتريك"، ناهيك عن التآمر الخارجي الأجنبي.

نتيجة لهذه المعطيات التاريخية لا ينفصل الوعي الذي جسده النص، عن معطى تاريخي كبير وحاسم، هو ظاهرة "الكوسموبوليتية"،التي خلقتها في الأصل الخلافة العثمانية، من خلال ما كرسته الظاهرة من سيادة للاحتكار، وغياب العدالة الاجتماعية؛ بحيث لا يمكن للفرد العربي ساعتها أن يفكر خارج وجوده الاجتماعي

والتاريخي، المتميز بالاحتكار لمختلف وسائل الإنتاج، والبدايات الفعلية لظهور نمط إنتاجي جديد، ذو طابع إقطاعي صرف.

إن الوعي الذي جسده النص، هو من صميم التحولات التاريخية الجديدة، التي صاغتها المنظومة الاقتصادية القائمة، والتي بنيت على أسس إقطاعية صرفة قامت على أنماط الاستغلال المطلق للفئات الشعبية الساحقة. لذلك فالمناداة التي جسدها النص بالعودة إلى الماضي، واستعادة مجد سالف، لا يمكن الاعتقاد بأن هذا المجد هو مجد حضاري روحاني، يستند إلى المثل العليا البعيدة عن التصورات الواقعية، والبعيدة أيضا عن الوعي بأهمية التحولات المادية الجديدة؛ فالحنين إلى مجد سالف يرتكز على شرط أساسي من شروط التحول التاريخي، الهادف إلى صياغة نمط حضاري مميز، يعيد صورة الماضي وفق مقتضيات التحولات الجديدة.

ولا يستقيم التفسير الموضوعي لمضمون النص، إلا وفق ما يتم تقديمه من وعي تام لطبيعة التحولات التاريخية الخاضعة في أصولها، لتحولات مادية صرفة، التي تصوغ الوعي، وطبيعة الصراع الطبقي. والانهيار الذي عرفته الأمة العربية الإسلامية -وفق ما جسده النص، هو نتيجة موضوعية لسيادة نظام "الكوسموبوليتية" الذي كرس صورة الاحتكار في أبعادها العميقة، وأنتج نمطا إنتاجيا لا يخضع لأحكام العدالة الاجتماعية، وعليه يمكن توقع نمط جديد من الصراع الطبقي الهادف إلى إحداث حركة ثورية تغييرية، تعطي للتحولات التاريخية الجديدة المعنى المنوط بها.

الهوامش

1 -د/عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث -تاريخا وأنواعا، وقضايا وأعلاما -،ديوان المطبوعات الجامعية -الجزائر،الطبعة الأولى 1995،ص:41

2 -سعد الدين محمد بن أبي شنب: النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد الأول -الجزائر 1964،ص:41

3 -د/أبو القاسم سعد الله: مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي، مجلة البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، العدد التاسع 1978 ، ص:61

4 -المرجعنفسه ص:61

5 -ولد الشيخ عبد القادر المجاوي في مدينة تلمسان بالغرب الجزائري سنة 1267ه الموافق لسنة 1848م، حيث درس هناك ثم انتقل إلى المغرب لمتابعة دراسته في مدينة فاس وطنجة وجامع القرويين. عاد بعد ذلك إلى الجزائر سنة 1292 ه، بعد أدائه فريضة الحج، وبدأ نشاطه كمدرس في الجامع الكتاني بداية من سنة 1292ه، ثم المدرسة الحكومية بداية من سنة 1295 ه، كما كان مدرسا ومحاضرا في المدارس الحرة والمساجد خارج أوقات عمله الرسمية.

أحدث الشيخ المجاوي أثرا كبيرا في الأوساط الفكرية والشعبية بدروسه ومحاضراته التي كان يلقيها في المدارس والمساجد. وفي سنة 1315ه الموافق لسنة 1858م، انتقل إلى العاصمة للتدريس في المدرسة الثعالبية العليا، كما عين إماما خطيبا بمسجد سيدي رمضان بالعاصمة سنة 1326ه الموافق لسنة 1908م، وبقي في أوج نشاطه بين تدريس وتأليف وإصلاح، مدركا الوضع الاجتماعي السائد بكافة ظروفه. تخرج على يديه أعلام جزائريون في الثقافة والعلم أمثال: حمدان الونيسي، وهو أستاذ الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكذلك المولود بن الموهوب،..وغيرهما من الأساتذة الجزائريين المعروفين.

يذكر للشيخ المجاوي عمله الدءوب من أجل الرقي باللغة العربية، والحفاظ على نصاعة الدين الإسلامي، كما كان من أهم الرواد الأوائل للحركة الإصلاحية في الجزائر، لتصديه للانحرافات والآفات الاجتماعية، والخرافات والبدع، والعادات السيئة التي اجتاحت المجتمع الجزائري آنذاك، كما سعى لتقويم السلوكات الرديئة للفرد الجزائري، الشئ الذي عرضه للمتاعب، وهجاء بعض الشعراء الطرقيين المناهضين للفكر المستنير.

توفي بمدينة قسنطينة يوم:06 أكتوبر 1914م، حيث دفن هناك، تاركا خلفه أثرا طيبا لدى مواطنيه، وآثارا فكرية وعلمية مختلفة في النحو واللغة، ومجالات أخرى، بلغت ستة عشر كتابا.

6 -د/عمر بن قينة:في الأدب الجزائري الحديث،ص:43

7 -د/عمر بن قينة: شخصيات جزائرية، دار البعث للنشر والتوزيع، قسنطينة -الجزائر، الطبعة الأولى 1983 ،ص:16

8. د/ عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، ص: 44 (8)

9. د/أبو القاسم سعد الله:مدارس الثقافة في المغرب العربي، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد التاسع،ص:60

10. د/ عمر بن قينة:في الأدب الجزائري الحديث،ص:44\45

11. طبع هذا الكتاب لأول مرة في مطبعة بيير فونتانة بالجزائر سنة 1324ه\1906م.

12. د/عمر بن قينة:في الأدب الجزائري الحديث،ص:45

13. ولد الشيخ محمد بن عبد الرحمان الديسي في قرية الديس قرب بوسعادة التابعة لولاية المسيلة حاليا عام 1270ه\1854م، تعلم في مسقط رأسه، ثم تابع دراسته في زاوية ابن أبي داوود قرب آقبو، وعلم في زاوية الهامل قرب بوسعادة بداية من عام 1887م ،إلى غاية أن وافته المنية. من آثاره الأدبية، ديوانه الشعري "منة الحنان المنان" وهو لا يزال مخطوطا، وقد تضمن مدائح هامة للرسول "ص"، كذا مدائح لشيوخ زاوية الهامل، وفي مقدمتهم الشيخ المؤسس "محمد بن أبي القاسم" المولود سنة 1239ه\1823م، والمتوفى سنة 1315ه\1897م. كما أتبع ديوانه بقصائد في التهاني ،والغزليات ،والإخوانيات ،والرثاء..وغيرها من الأغراض الشعرية الأخرى.توفيعام 1339ه\1921م.

14. أخذت النماذج الشعرية من ديوان الشيخ عبد الرحمان الديسي: منة الحنان المنان، وهو لايزال مخطوطا.

15. د/ عمر بن قينة: الديسي حياته وآثاره وأدبه، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، 1980 ،ص:183

16. ولد الشيخ عاشور الخنقي في خنقة سيدي ناجي سنة 1264ه\1854م، تعلم في الجزائر، ثم سافر إلى تونس لاستكمال تعليمه. عمل في التعليم الحر كمدرس بمدينة "قسنطينة" إلى أن تعكرت حياته نتيجة الحزازات الشخصية، والخلافات المذهبية التي تطورت إلى حد الاعتبارات الشخصية. انتقل بعدها الشاعر للتدريس في زاوية "الهامل" "ببوسعادة" حيث صارت له مكانته العلمية هناك، ولدى شيخها المؤسس"محمد بن أبي القاسم" الذي خصه بقصائد طويلة. من هذا الجانب بدأ خلاف حقيقي بينه وبين الشيخ عبد الرحمان الديسي، لاسيما بعدما ألف الشيخ عاشور كتابه المعروف"منار الأشراف"، الذي مدح فيه الأشراف وشيوخ الزاوية القاسمية بشكل مبالغ فيه، فتصدى له الديسي بكتاب مماثل موسوم ب:"هدم المنار"، معرضا بغلوه وتطرفه في مدح الأشراف بحق أو بباطل.

وتواضع الشيخ عاشور مع الأشراف قابله من جانب آخر غرور وسلاطه لسان مع الآخرين، مما جر عليه المتاعب، خاصة بعد وفاة مؤسس الزاوية القاسمية الأول، ثم وفاة ابنته وخليفته السيدة "زينب" سنة 1323ه، فقطعت مخصصاته التي يعيش منها في عهد خلافة أبناء عمها من بعدها.

17. الشيخ عاشور بن محمد الخنقي: منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف، المطبعة الثعالبية -الجزائر 1914، ص:13

18. الشاعر عمر بن قدور من مواليد سنة 1886م. عاش في مطلع القرن العشرين إرهاصات الحس الوطني المتوثب، كما عاصر المؤامرات والدسائس التي حيكت حول الخلافة العثمانية في الأستانة من لدن القوى الاستعمارية المعادية، فحذر من عواقب هذا التآمر. كما شهد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية وما انجر عنه من تشتت شمل الأمة العربية الإسلامية، ووقوع باقي أقطارها تحت نير الاستعمار، وتمكين الصهيونية العالمية من أرض فلسطين العربية.أسس جريدة "الفاروق"، وسخر قلمه للدفاع عن قضايا الجزائر، وقضايا سائر العالم العربي الإسلامي، لاسيما فيما يتعلق بالتحرر. يعتبر عمر بن قدور من رواد الصحافة العربية في الجزائر، وعرف أكثر بجريدته الفاروق التي امتدت بين سنتي 1913م -1915م، حين أوقفتها سلطات الاحتلال الفرنسي ونفت صاحبها إلى "الأغواط" إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى، حين عاد مجددا لإصدار السلسلة الثانية للجريدة التي لم تعمر طويلا، حيث دامت أقل من سنتين(1920م -1921م). بعد هذه الخيبة التي كانت نتيجة ضغوطات الاحتلال الفرنسي، لاذ بعدها الشاعر بعزلة وانطواء. وهو الرجل الذي ملأ الآفاق بآرائه وأفكاره النيرة التي دخل بها عصره، كدعوته إلى تأسيس "جماعة التعارف الإسلامي في شمال إفريقيا" سنة 1914م، كما دعا إلى تأسيس شركات اقتصادية، وجمعيات خيرية، ونواد أدبية، ومدارس عربية حرة سنة 1920م. ورغم الخيبات و الانكسارات التي جابهته، فقد تمكن من تأسيسأول مدرسة عربية حرة في الجزائر العاصمة، وهي مدرسة " الشبيبة الإسلامية" سنة 1923م، حيث كان الشاعر أول مناد بها، وقد تميزت هذه المدرسة بروحها العربية الإسلامية، وبأبعادها التربية والثقافية.

19. للمزيد من التفاصيل،ترجى العودة إلى المراجع الآتية:

20. د\صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر، د/ت،د/ط

21. عمر بن قدور الجزائري :سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، -جمع وتقديم الدكتور: صالح خرفي، المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر، 1984

22. د/عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر 1987

23. د/محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية -نشأتها تطورها وأعلامها،من:1903 - 1931م،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -الجزائر 1978

24. د/سعد الدين بن أبي شنب: النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد الأول، السنة الأولى1964.